

العرب والعودة إلى التاريخ : مرتكز الحرية في ظل محاولات تجديد الفكر القومي

ممن دراسة :

د/ جمال علي زهران

مقدمة :

لا شك أن الفكر القومي العربي والمشروع الوحدوي يعاني من محنة شديدة بين تيارين هما : الكفر بالقومية العربية ، والجمود في ظل مفاهيم الأربعينيات من القرن الماضي (العشرين) .

وقد تتباين الأسباب وتختلف الاتجاهات في تحليل أسباب تراجع الفكر القومي العروبي ، إلا أن الثابت والمشارك في ذلك هو أن هناك من العوامل الخارجية التي أسهمت في توظيف العوامل الداخلية ، قد لعبت دوراً بارزاً في إعاقة التطور الطبيعي لهذا الفكر العروبي . وقد كان فشل التجربة الوحدوية العربية بين مصر وسوريا والتي سميت (الجمهورية العربية المتحدة) في الفترة من 1958 - 1961 ، وكذلك وقوع هزيمة يونية (حزيران) 1967 ، خير الأمثلة الحية التي جسدت حجم المؤامرة الخارجية (الصهيونية الأمريكية) في تعويق الانطلاقة العربية نحو الوحدة .

ومن هنا ، فإن كتاب د. رفعت الأسد ، بعنوان : " نحو تجديد الفكر القومي " يأتي محاولة لتنشيط الحوار حول رؤية جديدة للفكر القومي العروبي ونحن في أمس الحاجة إلى توليد الشعور الإيجابي نحو هذا الفكر ، مرة أخرى رغم كل التحديات التي تواجه المنطقة العربية التي تعرضت إلى تفكيك منظم

ومخطط للحيلولة دون بناء نظام عربي حقيقي مؤسس على الفكر القومي العروبي .

وقد ارتكز الكتاب الهام في تحليله للخطاب القومي الجديد ، على أربعة ركائز هي : الحرية والسلام والعدل والقومية .

ويمكن إن نركز على مرتكز الحرية ، باعتباره مرتكزاً للعودة بالعرب إلى سياق التاريخ بعد أن ظهر العرب وكأنهم خرجوا من التاريخ بلا عودة في ظل المتغيرات المتلاحقة منذ منتصف الثمانينيات من القرن العشرين وحتى الآن .

وبكل أسف فإن العرب يمثلون المنطقة الرخوة من العالم التي لم تستطع التجاوب مع التغيير السياسي ، ولذلك فقد فعل بها الغرب ما يود أن يفعله دون مقاومة على نفس مستوى الفعل حتى ظهرت النظم الحاكمة وهي صريعة بين ضغوط الشعوب في الداخل ، والتي لم تصل بعد إلى القدرة على إجبار هذه النظم على التجاوب معها والاستجابة لطموحاتها في الحرية ، وبين ضغوط الخارج ، التي استطاعت تأمين هذه الأنظمة لتحقيق مصالحها في السيطرة على مقدرات المنطقة وإدارتها بما يتفق مع مصالحها . وقد أوصلت هذه الضغوط الخارجية الأنظمة العربية إلى الخضوع الكامل ، إلى حد توافق السياسات الغربية مع سياسات غالبية النظم العربية الرسمية .

ولم يعد لدى الأنظمة العربية أية استعدادات أو مجرد حماسة تفكير في معارضة هذه الضغوط الخارجية ولذلك فإن إعادة هيكلة هذه النظم العربية بإرادة الشعوب أصبحت من أهم التحديات التي تواجه حاضر ومستقبل هذه المنطقة العربية . فقد كان الهدف ولازال من القوى الكبرى خاصة الغربية الحيلولة دون حدوث تكامل قومي لهذه المنطقة لأن هذا يمثل أكبر عائق إمام السيطرة الغربية على مقدرات المنطقة العربية .

وفي ضوء ما سبق تصبح قضيتا الحرية والعدل هما جناحا القومية العربية،
وسأركز على قضية الحرية .

أولا : الحرية في الخطاب القومي القديم

استقر إلى وقت طويل ولازال لهذا أثره حتى الآن ومظاهره ، ارتباط بين
القومية واللاحرية . كما اختزلت القومية في البعد الاجتماعي الذي يتمحور
حول قيمة العدل .

وأدت الممارسات السياسية للنظم العربية الداعية للقومية إلى التضحية
بالحرية السياسية لحساب العدل الاجتماعي وسيطرة الدولة على موارد المجتمع
وانفرادها بالسيطرة على إدارة الاقتصادات الوطنية تحقيقا لهذا الهدف .

وظهر فريق كبير من المثقفين والسياسيين ، بادروا بالدفاع عن هذا التوجه
والتنظير له ، فتم تكريس الاستبداد وتجزئه بصورة واضحة . وكشفت
الممارسات عن ظهور طبقة جديدة من الحكام أعطوا ظهورهم للفكرة القومية
واستثمروا الاستبداد من أجل العصف بتراث العدل الاجتماعي الذي تحقق .
ومن ثم ظهرت " الخصخصة " وتحويل الموارد العامة إلى موارد خاصة .

وتم إهدار الموارد العامة أو البيع بأبخس الأثمان ، وتلاحمت الثروة مع
السلطة إلى حدّ التحالف الوثيق .

وانتشر الفساد باعتباره الناتج لتحالف الثروة مع السلطة التي أصبحت
تستثمر من أجل أصحاب رؤوس الأموال على حساب الفقراء فانتشر الفقر
وزاد عدد الفقراء في العالم العربي وقد تجاوز في المتوسط نسبة 50% ولم يكن
هذا الوضع الجديد ومغامرات الطبقة الحاكمة الجديدة في العالم العربي ، لتنجح
لولا بيئة الاستبداد وقهر الشعوب واختزال حقوق الإنسان في جانب واحد

هو الجانب الاجتماعي الاقتصادي دون بقية الجوانب وخاصة الحريات السياسية .

وأكد أن أتصور أن الفكر القومي العربي لو كان قد ارتكز إلى جناحين أساسيين هما العدل الاجتماعي والحرية السياسية ، في الواقع العملي ، حدثت نقلة نوعية من التكامل القومي للمنطقة العربية ، وهو الخطوة الأساسية نحو تجسيد المشروع العروبي الوحدوي .

ولو تم الرجوع إلى أصول التجربة الأوروبية وتطورها نجدها وقد ارتكزت أساسا إلى جناحي الحرية السياسة والحرية الاقتصادية في ظل دور قوي وحاسم للدولة ، وقد تكون قيمة العدل الاجتماعي مطلوبة في ظل التخلف الاقتصادي والتباين الطبقي في المنطقة العربية ودور فاعل وقوي رئيسي للدولة في إدارة الاقتصاد الوطني ولو لفترة من الزمن حين تأصيل الحدود السياسية بين ما هو عام وبين ما هو خاص ، ومن ثم يصبح مطروحا بعد ذلك الاستقرار على النمط الاقتصادي الذي ينتج عدلا اجتماعيا حقيقيا ، أما المحور الذي لا يقبل تأجيلا ، فيتمثل في " الحرية السياسية " .

ولو تم الأخذ به منذ وصول أنظمة وطنية للحكم بعد الاستقلال عن الاستعمار الأجنبي ، لكان من نتاج ذلك استغلال أمثل للزمن ، وتحقيق للوطن والشعوب مصالح أفضل في مقدمتها تقوية الفرصة على التغلغل الخارجي في أوصال المنطقة العربية بكاملها مما أعاق الفكر القومي عن التطور والنجاح في الواقع العملي .

ثانيا : الحرية في الخطاب القومي الجديد :

نسلم مع الآخرين من البداية ، بأن الاجتهاد في كل شيء هو نتاج إنساني راق يستلزم احترامه مهما كان مضمونه وأن منع الاجتهاد يمثل " إرهابا

فكريا " ندفع جميعا ثمنه ، كما إن الاجتهاد الفكري في الفكر القومي العروبي يمثل طاقة هائلة في دعم مصالح الأمة العربية ، بل إنه لا يتوقف عند هذا الحد ، بل يمثل طرحا في نمذجة هذا الفكر عند مقارنته بالقوميات الأخرى في ظل التفاعل الإنساني المتبادل ، ولذلك فإن الانغلاق في مجال الاجتهاد يفوت على الأمة فرص النهوض وتجاوز الكبوات وكسر حواجز الهزيمة والانكسار بين فترة وأخرى ، وبالعكس فإن دعم الاجتهاد وتشجيعه، من شأنه اللحاق بالآخرين ، وتجاوز الأزمات ، وفجوات الزمن ، واستيعاب لمتغيرات العصر ، وتقييم ما مضى ورسم وتخطيط لما هو آت .

ولا شك أن الخطاب الجديد في الفكر القومي كما خطه د. رفعت الأسد ، يهدف إلى رد الاعتبار إلى الذات القومية ، والتواصل المعرفي مع التراث القومي دون انقطاع ، وأن السبيل لذلك هو النهوض الذي يرتكز، أساسا، على الديمقراطية السياسية، والتعددية الحزبية والحريات السياسية بلا حدود بما يحقق العدل والمساواة واستبعاد التمييز بين عناصر الأمة العربية وقد أصاب هذا الخطاب الجديد كبد الحقيقة عندما استند في صلبه إلى الحرية السياسية كمدخل لإعادة الاعتبار للذات القومية العربية .

واستفاد بالتالي في طرحه هذا ، إلى جانب تراث الممارسة السياسية طيلة النصف قرن الماضي وأكثر الذي أغفل جانب الحرية السياسية من جوانب التطبيق فاخترل الفكر القومي في جانب دون آخر مما احتاج معه إلى مراجعة نقدية في ظل متغيرات العصر وتراث الممارسة وثوابت الأمة.

-وحسبما يرى الأسد، فإن مفهوم الحرية يتجسد في اعتباره المدخل لولوج باب المستقبل ، بل هو دالة موضوعية على صحة منهج التقدم والنهضة ، وعلى الانتقال الكيفي من حالة قائمة إلى حالة مرجوة أو مأمولة .

واتساقا مع ما ذهب إليه "ديكارت" عن القيمة العليا في الوعي التاريخي الفرنسي بقوله : أنا افكر إذن أنا موجود " فإن التعبير عن القيمة العليا في الوعي التاريخي العربي يمكن صياغته في :

" أنا حر ... إذن أنا موجود " .

ومن مقولات الخطاب الجديد في هذا الشأن :

- " ليس من الصعب رسم سقف للحرية ، ولكن من الصعب والمستحيل معايرة ذلك السقف وتحديد أبعاده " .

وكذلك : " وحسبك أن الحرية صدق وجمال وإيمان بالله وبالآدمية القومية .. " .

وهو مركب يؤكد تلاحم الحرية مع القومية كما يتجلى الفكر الجديد في مقولة اخري :

" تتسامى إبداعات الحرية ، إنما ترسم مشهداً قيميا يصلنا بالله والقومية " .
وفي الصورة المقابلة تلخص مقولات الفكر القومي الجديد صورة الاستبداد المناقض للحرية في هذه المقولة :

" من أحسن حالات الديكتاتورية ، تحويل الدولة الوطنية إلى دولة وهمية " .
وكذلك : " وما استبدال ممارسة الحرية غير فاحشة كبرى وإثم عظيم " .
كما إن الوعي التاريخي العربي يدرك طبيعة الاستبداد ومن أهم الأمثلة "الكواكبي" وهو من رواد التجديد في الفكر العربي ومن دعاة التحرر والإصلاح والتحديث ، ومن رواد إيقاظ الشعور القومي واليقظة العربية ، حينما قال عبد الرحمن الكواكبي كل ما يريده حول هذه المعاني في كتابه الشهير : " طبائع الاستبداد " .

وفي المقابل تحددت وتطورت نظرية العقد الاجتماعي في الفكر الغربي حيث تبنت فكرة الدولة القومية وبمقتضى ذلك تم تغيير مفهوم الشرعية وتقويض حق الاستبداد الذي ساد في النظام الإقطاعي ، وقد كان ذلك أساس النهضة الأوروبية والسعي نحو التكامل والوحدة الأوروبية، وبالتالي، فإن الحرية هي الخيار المستمر للبحث عن عدالة المصير القومي ، وهي تأكيد للتوازن بين الجماعة والفرد ، وبين الجماعة الوطنية والجماعة القومية .

وخلاصة فكر التجديد القومي ، أن الحرية ليست هدفا في حد ذاتها وإنما هي الشرط الأولي الجوهري لكي تتقدم الحياة والمجتمعات الإنسانية نحو أفق أكثر عدلا وإنسانية وسلاما ، فالحرية هي نفي الاغتراب ، ونفي للاستبداد .

إنها البديل والممكن والضرورية ، باعتبارها التزاماً وطنياً وقومياً وإنسانياً في إطار وحدة الوجود ، بما يشكل عرقاً ثريا في صورة الوعي القومي العربي .

وختاما : فحسبما تقدم ، فإن تركيز الخطاب الجديد في الفكر القومي ، على اعتبار أن الحرية هي المدخل لنهوض عربي يحقق الوحدة العربية هو الخطاب الأمثل في ظل الظروف والمتغيرات ، ويتسق هذا التطور مع عقيدتي الثابتة في لبيرالية سياسية واسعة وفي عدالة اجتماعية في ظل دور محوري للدولة باعتبارهما ركيزتي الفكر القومي العربي .